تحية

أميركا اللاتينية فقدت «شريانها» الأبهر

إدواردو غاليانو: الكتابة بالممحاة

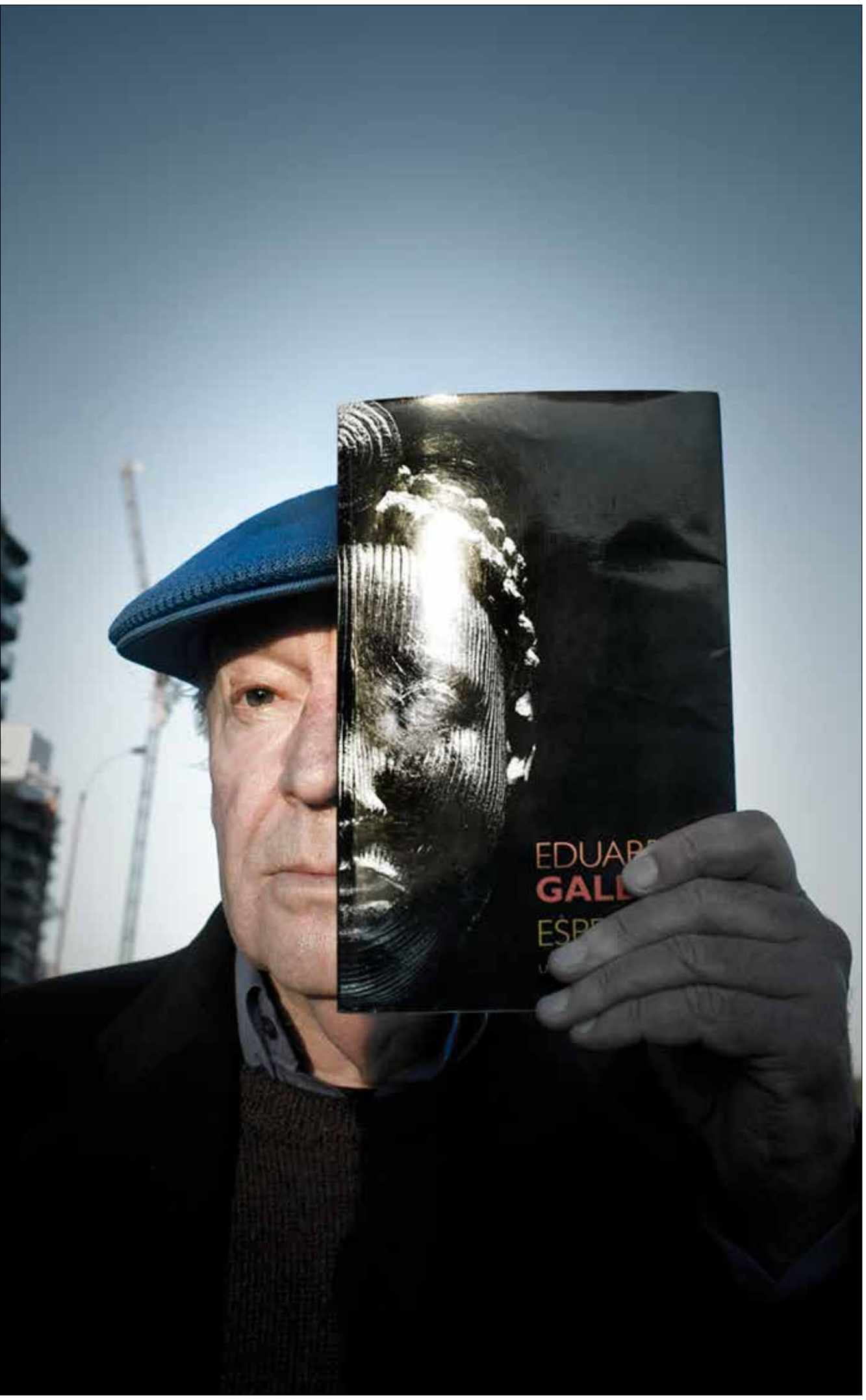

صالح علماني

كان من عادة إدواردو غاليانو (1940 ـ 2015)، عند بداية كل مونديال، أن يعلق على باب بيته إعلاناً مكتوباً بخط يده، يقول: «مغلق بسبب كرة القدم»، لأنه لا يريد أن يزعجه أحد بينما هو يتابع بشغف أعياد مونديال كرة القدم في موسمها كل أربع سنوات. هذا الكاتب المفتون بكرة القدم كان يرغب، مثل كل أطفال أميركا اللاتينية، أن يصبح لاعب كرة. ويقول: «كنت ألعب جيداً، كنتُ رائعاً، ولكن في الليل فقط، في أثناء نومي. أما في النهار فأنا أسوأ قدم متخشبة عرفتها ملاعب الأحياء في بلادي»، ويضيف أنه انتهى إلى القناعة بهويته الحقيقية: مجرد متسول يطلب أن تُقدم له كرة قدم حقيقية، يمضي متوسلاً في الستادات: ـ لعبة جميلة حباً بالرب. وعندما يرى كرة قدم جيدة، يحمد تلك المعجزة من دون أن يهمه «قدر فجلة» من هو النادي أو البلد الذي قدم ذلك اللعب الجميل.

هذا المهووس بكرة القدم، إلى حد أنه ألف أحد أجمل الكتب، وأكثرها شاعرية، عن هذه اللعبة التي صارت ديانة يؤمن بها ملايين البشر، هو أيضاً مؤلف أحد أهم الكتب التي أبدعها الأدب الأميركي اللاتيني في القرن العشرين، فهو صاحب «أوردة أميركا اللاتينية المفتوحة»، الكتاب الذي صار يعرف بإنجيل أميركا اللاتينية وكتابها المقدس.

اليوم، بعد أن رحل غاليانو عن هذا العالم، يحق لنا أن نتساءل: كيف يمكن أن نسمي الفراغ العظيم الذي سيخلفه بغيابه؟ من سيتكلم بمثل شاعريته عن أولئك اللا أحد (los nadies) ـ وهذه هي تسميته للمظلومين المقهورين، والضحايا المنسيين، ممن يمنحون معنى للحياة ـ كيف ستكون حياتهم دون مبضعه الذي كان يكشف لهم جرائم حضارة الاستهلاك بحق الإنسان والبيئة والكوكب. كيف ستكون حياتنا نحن من أدمنّا قراءة كتاباته المقتضبة، وتفاعلنا مع كلماته الدقيقة الصائبة المفعمة بالصدق والعمق والمعاني؟ كم سيفتقد العالم كله نزاهة هذا الرجل وكرامته ومواقفة الحاسمة البعيدة كل البعد عن المساومات. الكاتب الذي وقف صامتاً في مواجهة الصحافة يوم موت صديقه الحميم، الشاعر ماريو بينيديتي، عاجزاً عن الكلام، ولتخرج معه أخيراً عبارة واحدة مقتضبة: «الحزن يقال بالصمت».

في أحد الأيام قال له صحافي كان يجري مقابلة معه: «أشعر أنك تنظر بإحدى عينيك من خلال ميكروسكوب، وبعينك الأخرى من خلال تليسكوب». وقد وافق على ذلك الرأي وتقبّله ضاحكاً لطرافة التشبيه: «لأنه رأي يعكس نواياي جيداً». وقد كان ذلك ما سعى إليه دوماً: القدرة على رؤية ما لا يُرى، مع أنه جدير بأن يُرى. قصص الناس المجهولين والمنسيين ممن يزدريهم المثقفون عادة. وأن يكون قادراً في الوقت نفسه على رؤية العالم، والكون كله، من خلال ثقب المفتاح. أن يُطلّ من خلال الصغائر غير المرئية على عظائم أسرار الحياة والصراع الإنساني الدؤوب من أجل عالم يكون بيتاً للجميع، وليس بيتاً لقلة وجحيماً للأكثرية.

ولد إدواردو هوغيس غاليانو في مونتيفيديو، عاصمة بلاده الأرغواي، يوم الثالث من أيلول 1940. في الرابعة عشرة من عمره، في عام 1954، كان يعمل متدرباً في أحد المصارف، وقد بدأ في الوقت نفسه العمل في الصحافة، وذلك برسوم كاريكاتير سياسية كانت تنشرها صحيفة « إل سول» الاشتراكية في مونتفيديو ويوقعها باسم « غيوس». وكان يعتقد في ذلك الحين أن مستقبله سيكون في الفن التشكيلي. ولكن إدواردو هوغيس، عند بلوغه التاسعة عشرة، وحيال عجزه عن التعبير عن نفسه بالرسم، وضيقه من عدم قدرته على الكتابة، «لأن كل ما كان يرغب فيه هو أن ينسج أفكاراً وقصصاً من الكلمات»، حاول الانتحار بمادة سامة. وحين استيقظ بعد أيام عدة في صالة المعتقلين بمستشفى ماثيل، وكانت مواضع من بشرته محروقة بفعل الأحماض القوية التي خرجت مع بوله وبرازه وهو نائم في شبه موت، ظن غاليانو يومذاك أنه في سوق بمدينة كالكوتا. فقد كان يرى «أشخاصاً شبه عراة يضعون عمائم ويبيعون ترّهات متنوعة، بعضهم يجلسون القرفصاء وآخرون يرقّصون أفاعيَ بمزمار». هذا ما يرويه في كتابه «أيام وليالي الحب والحرب»، ولكن ما رآه لم يكن سوى تهويمات الغيبوبة التي كان غارقاً فيها. عندئذ خلّف وراءه لقب «غيوس» والمراهق إدواردو هوغيس، ليتحول إلى إدواردو غاليانو. وهو يروي ما جرى له في «أيام وليالي الحب والحرب» على النحو التالي: «عندئذ بدأتُ أكتب وبدأت أوقّع ما أكتبه من مقالات وكُتب باسمي العائلي الثاني: غاليانو». وبعد ذلك، بينما هو في منفاه الاسباني، يضيف قائلاً في مقابلة صحافية: «انتبهت إلى أن تسميتي لنفسي بإدواردو غاليانو كانت، منذ عام 1959، طريقة للقول: إنني شخص آخر، إنني وليد جديد، لقد ولدتُ ثانية».

صار في ما بعد رئيس تحرير مجلة «مارتشا»، ثم مديراً لصحيفة «إبّوكا». وفي عام 1973، إثر الانقلاب العسكري في بلاده، اضطر إلى الهرب نحو الأرجنتين المجاورة، وأسس هناك مجلة « كريسس». لكن لعنة الانقلاب لاحقته إلى الأرجنتين، إذا استولى العسكريون في هذا البلد